الغربة والحنين في شعر الأبيوردي(ت٥٠٧هـ)
(دراسة تحليلية)

جنه تقي عبيد
أ.د. فهد نعيمة البيضاني

Alienation and nostalgia in the poetry of Al-Abiwardi (d. 507 AH): An analytical study
Research submitted by the student

Jana Taqi Obaid
Prof. Dr. Fahad Naima Al-Baydani

ملخص البحث

أهتم الشعراء منذ القدم بظاهرة الغربة والحنين ، فقد رافقت الشعر على مَرّ العصور ، إذ يعبر الشاعر عما يختلج في نفسه ، وعما يعانيه من ألم ، وحزن عميق ،سببه فراق الأَهل والأحبّة والأصدقاء ،فضلا عن بعده عن الوطن، مثّل شعر الغربة مرآة لنفس الشاعر ، وأغواره الداخلية ، عكس فيها بعض من صور الحياة الاجتماعية المصاحبة للشاعر ، المجسَّدة لعناء النفس الإنسانية ، وقد برزت هذه الظاهرة في شعر الأبيوردي ، وقد وجدتها في ديوانه الزاخر بها؛ إذ خاض في شواطئها ، وغاص في أعماقها ، ليس هو فحسب ، بل خاض غمار هذه الظاهرة الكثير من الدارسين، حتى بدّت واضحة وجليّة المعنى أَمام أَغلب الباحثين ؛ وفي ضوء ذلك انحسرت الدراسة في محورين الغربة المكانية ، والغربة الزمانية.

Abstract

Poets have been interested since ancient times in alienation and nostalgia since it has accompanied poetry throughout the ages. The poet expresses what he feels in himself, and the pain and deep sadness he suffers from, caused by the separation of family, loved ones, and friends, as well as his distance from the homeland. The poetry of alienation represented a mirror of the poet›s soul and his inner selves, in which he reflected some of the images of the social life accompanying him, which embodied the suffering of the human soul. This phenomenon appeared in the poetry of Al-Abiwardi, and I found it in his book Al-Zakherbaha. He plunged into its shores and dived into its depths. Al-Abiwardi is not the only poet interested in this phenomenon, but also many scholars waded through this phenomenon, until it became clear to most researchers. In light of this, the study regressed in two axes: spatial alienation and temporal alienation.

الأبيوردي شاعر عباسي، من أَشهر شعراء العصر الخامس الهجري، وقد عاش معظم حياته متنقلاً من مدينة إلى مدينة أخرى، ومن حاكم إلى آخر، وتجرع مرارة البعد والفراق عن أهله وذويه.

فالأبيوردي هو أبو المظفر بن العباس أحمد بن أَسحاق بن أَبي العباس القرشي الأموي المعاوي (ت ٥٠٧هـ)عاش حياة مفحمة بالفتن والاضطرابات والمؤامرات وقد مرَّ بثلاثة أطوار:

الأول: طور نشأته في مسقط رأسه كوفن وأبيورد، والثاني: طور شهرته ببغداد فهو سعى وراء المجد والشهرة، والثالث: هو طور غربته ومفارقته بغداد.

المبحث الأول:-

الغربة المكانية.

ارتبط مفهوم الغربة بسعة المسافات، والحقب الزمنية، أما الاغتراب فهو منفّك عن هذا الارتباط؛ لأنَ صاحبها يشعر بأنَه غريب في نفسه ومكانه، وهذا الشعور هو نفسه الذي قد ينشر بذور الغربة داخل النفس وخارجها ومن معاني الغربة، النزوح، البعد، الهجر، الوداع، النوى، الصدّ،.... الخ؛ ويلازمها الحنين بمعناه النفسي، ومن هنا يتجلّى لنا أثر الارتباط بين الغربة والاغتراب[١]، ارتبطت ظاهرة الغربة المكانية بالابتعاد عن الوطن طوعاً أو كرهاً لأسباب عديدة. منها سياسية أو اقتصادية أو ثقافية [٢]، وتذمره من الزمان، وبعض العادات والقيم والسلوكيات من بعض رجالات الدولة التي تُعد من أهم مسوغات الغربة، عانى الشاعر الابيوردي(ت ٥٠٧هـ)من ألم الغربة فكان دائم الترحال والتنقّل من مكان إلى آخر لتحقيق رغباته وأحلامه، وقد ذكر ذلك كثيراً في أشعاره، فـ ((الإنسان العربي منذ أقدم العصور يخشى فراق الأرض وتضنيه الغربة ويحس بالشوق والحنين إلى وطنه أَينما

أتجه)) [٣]. ولكون المكان عنصراً مهماً في حياتنا؛ فهو يمثل التجربة الحسية التي عاشها الإنسان أو الأديب بصورة خاصة وتعامل معها تعاملاً مباشراً، وتحتل في الشعر أهمية خاصة، فالمكان أكثر التصاقاً بحياة الفرد فهو الموضع الذي يوجد فيه ولقد أثر عليه تأثيراً مباشراً في حياته وسلوكه، فقد مثّل (البعد المادي للواقع أي الحيّز الذي تجري فيه لا عليه الأحداث) [٤]. لقد كانت علاقة الشاعر بالمكان علاقة وثيقة؛لأنّه يجسد إحساسه وروحه وعاطفته المتوهجّة التي تَشُدُّهُ إلى الأرض لاعتبارات عدّة لا يفهمها إلا هو، ممّا قد ينتج مكاناً متصوراً جديداً مختلفاً عما نراه. وقد يتخذ دلالات جديدة عند ارتباطه بالشعر، فيرسم الشاعر صورة أقرب ما تكون حسية جاعلاً منها مكاناً أليفاً إذا كان متوافقاً معه فيأنس بوجوده أو معادياً متذمراً منه[٥]، عمل الشاعر على كسر غربته، عبر تغيير المكان الذي كان أحد المنافذ الرئيسة التي أعتمدها الشاعر. أما نصوصه الشعرية فقد كُتِبتْ بين مكانين وولائين مختلفين: إيران التي تمثل مسقط رأسه، والعراق الذي عبَّر عن انتمائه العربي وطموحه وآماله[٦].

عند تتبع المنجز الكتابي، نلمس علاقة الشاعر بالمكان، فلم يكن المكان ثابتاً حسب رؤية الشاعر النفسية، فكان للظرف السياسي أثرٌ في ذلك، وفي تحول المكان من أليف إلى معادي، وعلى الرغم من تعرض الشاعر للمضايقة مع بعض الأمكنة وخصوصاً بغداد ولكن الشاعر غض طرفه عنها لِمَا تمثّل من مكانة في نفسية الشاعر، ومن الأماكن التي ذكرت هي كوفن وأبيورد التي تمثل مسقط رأسه ووطنه، وبغداد: أرض أحلامه وطموحاته، وبابل، ونجد.

ارتبط الإنسان بالمكان بما فيه من متغيّرات وظروف إذ تجدد تلك المتغيّرات مدى قوة الانتماء أو استمراريته.وأطلق على هذا المكان

اسم الوطن، وهو المكان الذي يربط الإنسان بأرضه وبأبناء وطنه[٧] انتمى الشاعر مكانياً لـ أبيورد ولكن عندما شعر بالذلّ فقد ترك هذا المكان، فقال:

إذ اذَّلت حياتُك في مكانٍ
فَمُت لطلابِ عزكَ في مكانِ[٨]

وقف الشاعر وقفة جدلية تضادية لها دلالة فنية، فهي وسيلته لأداء المعنى، عبر ثنائية (الذلّ، العزّ)، (الحياة، الموت) كما كرَّرَ لفظتي (في مكان) وهي إشارة إلى مكانيين مكان العزّ، ومكان الذلّ وهذا دليل على عدم ارتياح الشاعر وشعوره بالتوجّع والقلق والوحشة من بعض الأمكنة. فالمكان الذي لا يحقق فيه ما طمح إليه سيتركّه ويرحل؛ لارتباط المكان بأهدافه التي يسعى إلى تحقيقها، فالذات حينما تفشل في تحقيق ما يصبو إليه في مكان معيّن يتحوّل ذلك المكان إلى بقعة معادية يكون التحوّل عنها من باب فاعلية الذات الثائرة التي تأبى الخضوع[٩]. قال:

إذا قصرتْ عما أحاولهُ يدي
بأرضٍ فإنِّي لا أطيلُ بها لبثا
أُفَارِقها والفَجْرُ في حِجْرِ أُمِّهِ
ولمْ يلفظِ الوكرُ الخداريَّة الغرثى[١٠]

نجح الشاعر في رسم الصورة الكنائية وقد مزجها بآليات تصويرية ومنها الاستعارة، فكانت الصورة أكثر حيوية، فقوله (الفجر في حجر أمه) كناية عن التبكير في الابتعاد عن الأماكن التي لا تحقق أمانيه، كما نجح في تشخيص الفجر إذ جعله طفلاً صغيراً، إن هذا التمازج بين الاسلوبين البلاغيين الكناية والاستعارة أدخل الصورة في ذروة الاكتشاف التي يثيرها في نفس المتلقي للبحث عما أراده الشاعر من معنى.

عانى الأبيوردي معاناة الغربة المكانية والروحية، فمثّلها شعراً وأبداعاً، وبما يمتلكّه موهبة أتسمّت بجودة فنية عالية، هاجر الشاعر من خراسان بعد الاستيلاء على أراضيه وضياعه، فهو لم ينتمِ لبلاد العجم

روحاً وفكراً،إذ فشل فيها أثر وفاة والده وهو في عنفوان شبابه، وزاد من معاناته وذلك بعدم نصرة أقربائه وقدمه له[١١] ويمكن القول إن غربته بدأت من ذلك الحين فأراد الرحيل إلى العراق وإلى بغداد خاصة؛ لأنها مصدر الحضارة والثقافة والعلم، فكانت مقصد الشعراء، إذ قال الشاعر: (البحر البسيط)

فَهَذهِ شَتْوَةٌ أَلْقَتْ كَلاكِلَها
حتّى استبَدَّ بِصَفْوِ العِيشَةِ الكَدَرُ
وَمَنْزِلي أَبْلَتِ الأَيَّامُ جِدَّتَهُ
فَشَفَّني المُبلِيانِ: الهَمُّ وَالسَّهَرُ
وَلِلْفُؤادِ وَجيبٌ في جَوانِبِهِ
كَما يَهُزُّ الجَناحُ الطّائِرُ الحَذِرُ
يَحْكِي عِناقَ مُحِبٍّ مَنْ يَهيمُ بِهِ
إذا تَعانَقْنَ في أَرْجائِهِ الجُذُرُ
وَلَنْ تُقِيمَ بِهِ نَفْسٌ فَتَألَفَهُ
إذْ لَيْسَ لِلْعَيْنِ في أَقْطارِهِ سَفَرُ
وَالسَّقْفُ يَبْكي بِأَجْفانِ المَشُوقِ إذا
أَرْسى بِهِ هَزِمُ الأَطْباءِ مُنْهَمِرُ
وما سَرى البَرْقُ وَالظَّلْماءُ عاكِفَةٌ
إلاّ وفي القَلْبِ مِنْ نِيرانِهِ شَرَرُ
وَابْنُ المُعاوِيِّ يَهْوَى أَنْ يَكونَ لَهُ
مَغْنىً بِبَغْدَادَ لا يُخْشَى بِهِ الغِيَرُ[١٢]

صوَّر الشاعر (المنزل) تصويراً حسياً إذ جعله رمزاً لمعاناته وآلامه إذ تحوّل هذا المكان من مكان يشعر به بالحماية والأمن والطمأنينة إلى مكان يثير في داخله مشاعر الخوف والقلق والهم لما ينطوي عليه من سلبية، وانعدام الألفة والإحساس العنيف بعدم الاستقرار، فهو مكان مغلق وضيق وهو يطمح إلى مكان واسع تشعر فيه الذات بالارتياح، كما زاوج الشاعر بين المدح الذي خصّ به المستظهر، وبين إحساسه بالغربة، فكان المكان وسيلته في التعبير يثيرها العامل النفسي في لحظة خلق التجربة. كما وظف ألفاظ الزمان ((الأيام، البرق، الظلماء)) ومادته الفنية الخصبة وأثرها في وصف المنزل الخرب فهو زمان التحوّل من القبول إلى الرفض.

كما وظف الشاعر أسلوب

الاستعارة إذ شخَّص السقف وجعله يبكي والبكاء من الصفات الإنسانية، فبكاءه عَبَّر عن الأنين في روح الشاعر، فهو يستثير مشاعر الشوق والحنين إلى المكان، ثم إذا أرسى به هزم الأطباء أي السحاب الرقيق يعرض ولا ماء فيه فيصّفه بالمنهمر أي شديد الغزارة فيصّف شدة حزنه وآلمه، وفي ختام القصيدة ذكر عبارة يغتالها المطر التي جاءت في النص الشعري، فالمطر ـ تحمل دلالة الخصب والنماء وتجديد الحياة ولكن الشاعر جعله رمزاً للخطر والبلاء والشر.

يمكن القول إنَّ النص الشعري جمع بين الذات والمكان في نسق سياقي واحد، فشكّل عودة سريعة إلى الماضي رغبة منه للعيش في عالم جميل مثله في بغداد حيث الأمن والسلام رحل الشاعر إلى العراق محفوف بالآمال والطموحات ولكنه رفض من قبل الساسة؛ بسبب توجهاته السياسية فأقصاه الحكام، إذ كانت علاقاته معهم تتسّم بالضعف، إذ رفض كل ما يدينون به من أخلاق وقيم، وتحدث الشاعر عن أسفاره التي أنهكته وأنهكت أبله لطولها وكثرتها إذ قال: (البحر المتقارب)

خليليّ مسَّ المطايا لغبْ
وألوى بأشباحهنَّ الدَّأبْ
وَإني إذا أَنْكرَتْني البِلادُ
وشيبَ رضى أهلها بالغضبْ
لَكَالضَّيْغَمِ الوَرْدِ كاد الهَوانُ
يدبُّ إلى غابهِ فاغتربْ

إلى أن قال

وَإِنّي وَإِنْ نَـالَ مِنَّي الزَّمـانُ
ونحنُ كذلك سؤرُ النُّوبْ(١٣)

يتجلّى صوت الشاعر وصرخته بقوله (وإني إذا أنكرتني) ليعلن عن رفض الآخر له، كما عكس وحشية المكان وعدائيته إذ لم يذكر اسم البلاد، فقد جسَّد النص مخاضاً يولد منه حضور الذات الشاعرة بحضور ياء المتكلم، ثم ذكر محاولة الزمان النيل منه فقد غيّبه الزمان غياب لا أرادي خلقه

تقادير الزمان.

عانى الشاعر من الاقصاء والنفي بسبب توجهّاته وأفكاره وتطلعاته التي كانت لا تُرِقْ الخليفة العباسي وكانت إحدى أسباب غربته،فضلا عن رغبة الشاعر بلوغ العلا والمرتبة السياسية المرموقة. كتب الشاعر إلى بعض الخلفيّين من بني جمع وهم بالحجاز يشكو إليهم غربته إذ قال ـ البحر البسيط ـ

وفي الجَوانِحِ حُبٌّ لا يُغَيِّرُهُ
صَدُّ المُلوكِ وَبُعْدُ النِّيَّةِ القَذَفِ
وَما الحَبيبُ، وما أَعْني سِواكِ بِهِ
مِمَّنْ يَقِلُّ عَليهِ في النَّوى أَسَفي
تَقولُ حَتّامَ لا تَلوْي عَلى وَطَنٍ
وَكَمْ تُعَذِّبُ جِسْماً بادِيَ التَّرَفِ[١٤]

جسّد النص الشعري غربة الشاعر وهي تجربة إنسانية، مؤلمة، إذ تجرع مرارة غصصها فالشاعر حين يرحل عن وطنه وقومه وأحبابه، يشعر بالغربة شعوراً عميقاً، والحزن الشديد، وقد يلجأ الشاعر إلى الرمز بدوافع عدّة منها: التعبير عن ذاته، أو قد يختفي وراء أمر آخر لا يريد الشاعر التعبير عنه صراحةً، ممّا يزيد من معاناته، وظف الشاعر رمز المرأة فمرة أطلق عليها (العامرية)، ومرة أخرى (يا أخت سعد) وعبَّر عنها بصورة إبداعية فنية يصفّ شدة حزنها عليه وفيها شيء من المبالغة، إذ عبَّر عن شدة بكاءها يغترف منها دلو الدمع وهي إشارة إلى كثرة الدمع، وهي تسأله حتام لا تلوي على الوطن، وكم تعذب هذا البدن الذي كان متعوداً على الترف والراحة، ثم يجيبها بأنه جُذِب إلى العلا، وأنه وأن تغرّب إلاَّ إنه لم يفزع إلى جبان ولم يمتص ما فسد من الشراب، أما موسيقى الإيقاع فجاءت متجانسة مع الحالة النفسية؛ لأن البحر البسيط من البحور التي يجد فيها الشاعر متسعاً للتنفيس عن الآمه، فالألفاظ رقيقة، وتكثر فيها الحروف التي تدلّ على الحزن والصراع النفسي فحرف السين تكرر ٣مرات وتكرر حروف اللين أربع مرات وجاء

بالكلمات الآتية (النوى، عَيْنِ، خَيْر، فَليْت) فضلاً عن القافية المكسورة وهذا دليل على الصراع الحاد الذي عاشه بين نفسه الغريبة الحائرة، وواقعه البائس، وأختار الوطن والمكان للتعبير عنها وفق نسق فني واحد، محاولة منه لتخفيف وطأة الغربة.عانى الشاعر الابيوردي من ارهاصات الغربة والاغتراب في جُلِّ مراحل حياته. فنظرة الإنسان العربي الأصيل للغربة تختلف عن نظرة العالم الحالية، فالغربة عند الشعراء أما أن تكون غربة وجودية ونقصد بها غربة مكان، أو غربة نفسية، أي غربة النفس في وطن غير الوطن، ووسط أهل غير الأهل غربة الروح عن الجذور بينما يطلق عليها في المفهوم الحديث اغتراب حضاري وموقف يتخذه المثقف الغربي الفارغ قلبه من كل القيم الروحية[١٥] ارتبط الحنين بشكل وبآخر بالمكان عامةً، وبالغربة خاصة، فالحنين هو حبّ سرمدي خالد على امتداد العصور، ناتجٌ من قوة إحساس الإنسان اتجاه أرضه، فهي ظاهرة عاطفية، ملازمة للإنسان في العصور كافة، إذ زادت شعوره بألم والوحشة لابتعاده عن موطنه وأهله والحنين هو ((مصطلح أدبي طغى على الشعراء الذين ابتعدوا عن وطنهم فاعتراهم الشوق إليه؛ فكانوا يتغنون به وبجماله وهم يُعبرون عنه، ولا يكون شعر الحنين إلى الأوطان إذا كان المرء في وطنه، إلاَّ إذا كان في غربة نفسية))[١٦] فالحنين هو انتماء ورغبة في العودة إليه، وربما لا يعني الحنين إلى الوطن أو الأرض بذاتها بقدر ما هو حنين إلى الكينونة البشرية التي تقطنها من أهل وأصحاب وأحبّة إذ لا يختصّ بالوطن وحده، وإنما يكشف عن الاحساس الإنساني الذي يكنه الإنسان تجاه وطنه وأحبّته في صفات موضوعية مميزّة ، وقد إنماز شعر الحنين بالعاطفة الصادقة، وسهولة الألفاظ، والأحاسيس الحزينة، إذ إنها تجربة شعرية مرَّ بها الشاعر معبراً عن شعوره

بالفقد، واحساسه بالغربة والاغتراب مترجماً ذلك من خلال أشعاره الرقيقة التي تعد جزءاً مقتطعاً من نفس صاحبها.برز شعر الغربة والحنين بصورة واضحة في شعر الشاعر الابيوردي وهو يتشوّق إلى كوفن مسقط رأسه، ويدعو لها على نحو ما كان العرب يدعون به لأوطانهم، بالسقيا، فقال

ـ البحر الطويل ـ

سَقَى اللهُ رَمْلَيْ كُوفَنٍ(*) صَيِّبَ الحَيَا
ولا بَرِحا مُسْتَنَّ راعٍ ورائدٍ
وَلي أَدْمُعٌ إن أَمْسَكَ المُزْنُ دَرَّهُ
كفلنَ بصوبِ البارقاتِ الرَّواعِدِ
فقد أوطنتها منْ أميَّةَ عُصَبةٌ
غُذوا بالمعالي في حُجورِ المحامِدِ[١٧]

وظف الشاعر في النص الشعري أسلوب الدعاء بالجملة الفعلية (سقى الله) إذ يتضرع إلى الله عزّ وجلّ أن يسقى أرض كوفن بالمطر النافع الذي يحيي كل شيء ولا يفارقها الرعاة وطالب الكلأ إشارة إلى كثرة خيرات هذه البلدة (والدعاء بالسقيا ظاهرة تراثية قديمة، جرت على ألسنة الشعراء القدامى[١٨] أما في البيت الثاني أشار إلى صدق احساسه ومشاعره تجاه وطنه، فهو يشير إلى شدة شغفه، لذلك المكان واشتداد حنينهِ إليه، إذ لا يستطيع أن يمسك دموعه كما أشار إلى كثرتها، وقد عبَّر عنها بالحزن وهو السحاب ذو ماء، والبارقات وهو السحابة ذات برق، وفيه تشبيه بليغ إذ يشبه كثرة دموعه بالحزن ذات برق ورعد أو قد يكون المعنى بأن دموعه الغالية هي مَن تسقي أرض كوفن لا المطر أو المزن، ثم يصرح بأنه أتخذ منها موطناً له، إذ كان يرجو بلوغ المعالي فيها ويزداد حنينه واشتياقه وشعوره بالغربة المكانية في بغداد، ليس إلى بلده فحسب، بل إلى أمه، وسؤالها وقلقها عليه في غربته، بعد عودة المسافرين من العراق، إذ قال: ـ البحر الطويل ـ

ومشبلة شمطاءَ تبكي منَ النَّوى
وقد غيَّبتْ عن غابها أسداً وردا

وَتَحْتَ حَبابِ الدَّمْعِ عَيْنٌ رَوِيَّةٌ
مِنَ الدَّمِ والأحشاءُ مضمرةٌ وجدا
إذا طرق الرَّكبُ العراقي أرضها
جردا بحيث تُظِلُّ السُّمرُ مقربةً(*)
وَيَحْمي ذِمارَ الجارِ كلُّ ابْنِ حُرَّةٍ
يَكادُ مِنَ الإكرامِ يُوْطِئُهُ خَدَّا
وقالتْ نساءُ الحيِّ أينَ ابنُ أختنا
ألا أخبرونا عنهُ حيِّيتمُ وفدا
فإنَّ الّذي خلَّفتموهُ بأرضكمْ
فتىً منْ رأى آباءهُ ذكرَ المجدا
أَبَغْدادُ كَمْ تُنْسيهِ نَجْداً وَأَهْلَهُ
أَلا خَابَ من يَشْري بِبَغْدادِكُمْ نَجْدا
فدتهنَّ نفسي لو سمعنَ بما أرى
رمى كلُّ جيدٍ من تنهُّدها عِقدا(١٩)

ارتكزت بنيّة النص وفق نسق حراري بَيَّنَ فيه عمق غربته التي عاشها باختيار ألفاظ ذات جرس حزين، كما تمتاز بالسهولة؛ عكس فيه صراعه الداخلي فتصورّت البنيّة الاستفهامية في البيت الشعري بقوله " أين ابن أختنا "وقوله " أ بغداد "، التي تحيل القارئ إلى البعد المكاني، ودلالة استبدالية إذ استبدل فيه مكاناً عرف فيه بنعيمه وحسبه وتذكره مجد آبائه إلى مكان موحش مُبعد، فيعمد إلى بيان كل ما يعانيه بأسلوب استفهامي إذ كان يسعى بتحقيق طموحاته في بغداد بَيدَ أنّهُ لم يتمكن من ذلك، فيبدأ بمقارنتها بنجد، ممّا يؤكد دلالة الانكسار والتألم والتحسّر لديه، التي بدّت واضحة في التشكيل التصويري للمشهد الذي بدأ بتفجير طاقات الكلمة وانسجامها مع الإيقاع وغيرها من العناصر التي تندمج وتتوحّد لنجاح العملية الإبداعية.

ومن أسباب هروبه من بغداد وغربته المكانية قول ياقوت الحموي: "ولما عادى مؤيد الدولة وزير الخليفة عميد الدولة ألزمه أن يهجوه ففعل،فسعى عميد الدولة إلى الخليفة بأنه قد هجاك ومدح صاحب مصر،فأبيح دمه فهرب إلى همذان"(٢٠)

وبقى بعيدا عن العراق وأشار بقوله:

فصددت عنها إذ نبا بي معشري

وبغى عليّ من الأراذل معشر[٢١]

المبحث الثاني

الغربة الزمانية

أتسّع مفهوم الزمان نظراً لتنوّع استعماله واتساع معانيه، وتباين المذاهب القائمة على دراسته.

وقد أطلق على معنى الزمان لغوياً: أسم لمطلق الوقت [٢٢]، أما عند الفلاسفة فمعناه: إن الزمان مظهر من مظاهر الكون [٢٣]، ويمكن القول إنَّ محاولة الكشف عن مفهوم الزمان في الحياة موكوله إلى وظيفة الأدب، إذ اكتسب الزمان بعداً فنياً ينطوي على قيمة ومعنى، وقد أُطلق عليه تسميات عدَّة: فمنهم من أطلق عليه الزمن الذاتي [٢٤]، والزمن الاجتماعي العام [٥٢] أي الوقت ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، أو يقال إنساني، وأحياناً نفسي[٢٦]، بوصفه ظاهرة اجتماعية تنبع من الواقع [٢٧]، وبكونه أحد أهم عناصر التجربة الإنسانية[٢٨].

وممّا تجدر الإشارة إليه، إنَّ تحليل الزمان فنياً وفكرياً يُعبر عن عمق ارتباط هذا الظرف الطبيعي بالمكان، فعلاقة الزمان بالمكان علاقة وثيقة، فلا ينفصل أحدهما عن الآخر؛لأنهما مكملان لبعض، فتكون التجربة البشرية في الأدب ممكنة ومقصورة، لأن جلَّ أفعالنا تقع في مكان وزمان[٢٩].

فالمكان يحتوي على الزمن ويجسد البعد الإنساني للواقع؛ لأنه جزء من تكوين الإنسان، فبقي المكان لصيقاً بالتأريخ والحضارة، وشاهداً حيّاً على التغيير والتطور، وسجلاً أميناً للأحداث والمواقف والقيم[٣٠]

هل يمكن التفريق بين الغربة المكانية والغربة الزمانية ؟

والجواب على هذا السؤال نعم؛ وذلك لأن المكان يمكن استعادته بينما الزمان لا يمكن ذلك وهذا ما نلاحظه في تجربة الشاعر الابيوردي إذ كان يدفع درء الغربة بانتقاله من مكان إلى مكان آخر ودفن في نهاية المطاف في أصفهان، بينما غربته الزمانية استمرت

لحين موته، فظلَّ حنينه إلى الماضي حيث الصبا والشباب مستمراً وحاضراً في شعره إذ جسد مكان الذكرى رؤيته في الحياة فعاش الشاعر صراعه الذاتي بينه وبين الواقع في الزمن الحاضر.

وقد جسّد هذا المعنى قوله: ـ البحر البسيط ـ

فما الثَّواءُ بأرضٍ للمقيم بها
(**)السُّلُبِ (*) إلى الهُوَيْنى حَنينُ الوُلَّه
أَقْذى الزَّمانُ بِها شِرْبي وَرَنَّقَهُ(***)
ماذا تريدُ اللَّيالي منْ فتى ًغربِ(٣١)

فالشاعر هنا يشكو غربته المكانية في الأرض المقيم فيها وعدم رغبته بها ويشعر بالحيرة والسلب وزاوج هذا المعنى بالزمان الذي كدّر شوبه ثم وظف الأسلوب الاستفهامي بقوله ماذا تريد الليالي لبيان وحدته وغربته.

تجلّت الغربة الزمانية في شعر الابيوردي وموقفه منها إيجاباً وسلباً حسب ما جاء في النصوص الشعرية المتمثّلة للظاهرة، وتجلّت غربته عند حديثه في الزمن الحاضر ـــــ الشيخوخة وحنينه إلى الزمن الماضي ـــــ الشباب.

ويمكن القول إنَّ نظرة الشاعر إلى الزمان جاءت حسب خبرته الذاتية والإحساس بقوة التغيير التي يحدثها الزمن الخارجي، فولّدت لديه الشعور بالغربة وكذلك الاغتراب إذ شعر أنه مغترب عن نفسه وعن الزمن.

فالغربة الزمانية هي حالة نفسية تصيب الإنسان وهو يعيش داخل الوطن بين أهله وذويه ومن أسبابها عدم اهتمام الناس والحكام بمكانة الشاعر، وفقدان المكانة والمنزلة التي يستحقها (٣٢).

وقد يتجسَّد الزمن بمظاهر عدَّة، وهي الدهر، الشيب، الطلل، الليل، المرأة، الموت.

عبّر الشعراء عن همومهم وأحزانهم وكانت مواقفهم متباينة اتجاه الزمن، فنجده حيناً محبّباً إلى

النفس ومتصالحاً معها، عند ذكر المرأة والشباب، وحيناً آخر عابساً ومتخاصما؛ ويعود ذلك حسب تجربة الشاعر الذاتية أو الفردية والمجتمعية[٣٣].

ومن تمثّلات غربة الشاعر الزمانية هي المرأة، لم تكن المرأة إلاَّ رمزاً يستهل بها الشاعر قصائد المديح، أو تحقيق لرغبة دفينة في ذات الشاعر، فلم يكن ذكرها على سبيل الحقيقة، فقد حملت بُعداً فكرياً لمعنى أوسع، ولعل ذكرها كان قناعاً لمرمى ً بعيد إذ إَنَّ ((للشعراء أسماء تُحفَّ على ألسنتهم وتحلوّ في أفواههم، فهم كثيراً ما يأتون بها زوراً، نحو ليلى، هند)). [٣٤]

أو قد يكون ذكر المرأة نسبة للماضي الجميل الذي تشبث به، ولا يمكن الاستغناء عنه ومنها قوله:

سَقى اللهّ عَصْراً قَصَّرَ اللَّهْوُ طُولَهُ
بِها، وَعَلَينا لِلشَّبيبةِ رَيعانُ
يَهَشُّ لِذِكراهُ الفُؤادُ، وَلَلهوى
تَباريحُ لا يُصغي إليهنّ سُلوانُ
وَتَصْبو إلى ذاكَ الزَّمانِ، فَقَد مضَى
حَميداً وَذُمَّتْ بَعْدَ رامَةَ أَزْمانُ
إذِ العَيْش غضٌّ ذُلِّلَتْ لي قُطوفُهُ
وَفَوْقَ نِجادِي لِلذَّوائِبِ قِنْوانُ[٣٥]

فهو يحنّ ويتشّوق إلى فترة معيّنة، وهي أَلم اللهو، وإلى المكان الذي فيه تلك الذكـريات (رامة) ويرجو عودتها، والزمن هنا قصير، فما هي إلاَّ لحظات تمرّ عليه بسعادة وهناء، والزمن هنا نفسي، لذا يمرّ بسرعة، والأثر الإيجابي له " حميداً " في انعكاس للحظات الجميلة التي يحسُّ بها الشاعر، وجاء الزمن به مفرداً ومحموداً محبّباً إلى النفس، أما بعد " رامة " فكان الزمن نفسي أيضاً، ولكن يتعرض له بالذم فهو زمن طويل؛ لأن فترة الشباب والصبا قد انقضت، وشعر بحرارة العيش، فالإحساس بالزمن على قدر المعاناة التي مرَّ بها الشاعر، والشعور بغربة الزمن الحاضر، جعله يرتد بما يشبه الاسترجاع إلى الماضي، ليتمكن من العيش في الزمن الحاضر، قال:

واهاً لِعَصْرٍ يُعَنّينا تَذَكُّرُهُ
مَضى وفي الخَطْوِ مِن أيامِهِ عَجَلُ
بِمَنْزِلٍ حَلَّ فيهِ الغَيْثُ حُبْوَتَهُ
حَتَّى استَهَلَّ عَليهِ عارِضٌ هَطِلُ
أَهدَى لنا صِحَّةً تَقْوى النُّفوسُ بِها
نَسيمُهُ، وَأَثارَتْ ضَعفَهُ العِلَلُ[٣٦]

ههنا تحسر واضح على ذلك الزمن الماضي الذي مرَّ سريعاً. والحنين إلى متعلقات الماضي فتقوى النفوس بها في اللحظة الحاضرة بذكر النسائم التي تهب من ديار المحبوبة ((محاولة للانعتاق من وطأة الحاضر، وهو غربة عن الواقع، فحين يشعر المرء أنَّ حياته قد قسّت عليه، فإنه يجد متنفساً بالهروب منها إلى الماضي))[٣٧].

عانى الشاعر من واقعة ولم تكن معاناته مع الذات الطافحة والمتعالية فحسب بل مع المجتمع والزمن الذي لم يعرف قدره.

أثرت الغربة الزمانية في ذات الشاعر إذ بدت مثقلة بالهموم والأحزان الباعثة في النفس إذ قال:

لكنني في زمانٍ لا تزالُ لَهُ
نكراءُ مَرْهوبَةً تُغْري بِيَ النُوبا[٣٨]

عاش الشاعر فترة مليئة بالاضطرابات السياسية والاجتماعية وكان الشعب مغلوباً على أمره مخدراً ومريضاً ومتهالكاً فأصبح الشعب ضحية هذا التكالب[٣٩]، صوّر الشاعر تلك الفترة المؤلمة قوله:

أروح باشجان على مثلها أغدو فحتّى
متى يزري بي الزمن الوغدُ
أ في كلِّ يومٍ دولةٌ مستجدةٌ يذل بها حرٌ
ويسمو بها عبدُ
اذا اقبلت ألقت على الذمّ بركبها وإن
ادبرت لم يتلُ أربابها الحمدُ[٤٠]

وظف الشاعر الابيوردي أسلوب الاستفهام الاستنكاري (أ،متى) لبيان وحدته وغربته عن أبناء ذلك الزمان وعن الظرف السياسي الذي كان أحد الاسباب الرئيسة في غربته،وهو ظرف كانت تعاني فيه السلطة العربية من انهيار وسيطرة أناس لا يملكون رجاحة العقل ويعمد

العبيد إلى الوصول إلى المراتب العليا في الدولة بينما يعيش الأحرار أذلاء، كما انفتح النص إلى دلالات عميقة أضفّت دفقاً حيوياً مضاعفاً تسهّم في تكثيف المعنى ونقل التجربة الشعورية إلى المتلقي،كما وظف اسلوب التضاد إلى جانب الاستفهام في أكثر من موضع (أروح.اغدو) (الحر.العبد) (الذل. السمو) (اقبلت.ادبرت)فكان له دور في ابراز موقف الشاعر ومواقف الآخرين عن الواقع المزري [٤١].

الخاتمة:

اقترب البحث من موضوعة الغربة والحنين الذي يعد من مسوغات الغربة، إذ دخلت عناصر عدَّة في غربة الشاعر منها: المكان فقد بنى عليه الابيوردي غربته و الزمن فكشف من خلاله حنينه إلى الأهل والوطن، فأتخذ من المرأة وسيلة للتعبير في أكثر من موضع، وقد أشرك الطبيعة ومظاهر الكون فخلع عليه مشاعر الحزن والأسى وهذا يدلّ على أحساس الشاعر بالغربة، وتأمله لفقدان القوة في زمن الشيخوخة، وعدم تعويضه عما فات منه في الزمن الماضي، وبقي متحسراً على ذهاب تلك الأيام وكان للوضع السياسي أثر كبير في غربة الشاعر الابيوردي فترجمها شعراً وابداعاً، فبدّت عاطفة الشاعر جليّة،وعمّق شجونه وشحذ قدرته على التعبير،إذ أثارت أحاسيسه وبواعثه النفسية العميقة في ذاتية الشاعر.

الهوامش:

١- الغربة والحنين في شعر الجواهري: محمد حسون نهادي،١٩

٢- الغربة المكانية في الشعر العربي:عبدة بدوي،١٣

٣- الاغتراب في الشعر الاسلامي:سميرة سلامي،٢٧

٤- اشكالية المكان في النص الادبي:ياسين النصير،١٥٥

٥- ينظر:المكان في شعر الشريف الرضي،زينب عبد الكريم،١٥٥

٦- عراقيات الابيوردي:عماد جغيم عويد، ٥٨

٧- جدلية الحضور والغياب في شعر الابيوردي،٤٢

٨- الديوان١/ ٤٣٨

٩- ينظر: المكان في شعر الشريف الرضي، زينب عبد الكريم،١٦٦

١٠- الديوان:٢/ ٩٢

١١- ينظر:الابيوردي حياته دراسة في شعره القومي،٣٨

١٢- الديوان: ١ / ٦٥٧

١٣- الديوان:٢/ ٦

١٤- الديوان:١/ ٦٤٤

١٥- ينظر: الغربة والحنين في الشعر الاندلسي: فاطمة طحطح،٣٥

١٦- المعجم المفصل في الادب:التونجي ١/ ٣٨٥

*- كُوفَن: بليدة صغيرة بخراسان على ستة فراسخ من أبيورد أحدثها عبد الله بن طاهر في خلافة المأمون، ومنها أبو المظفر محمد بن أحمد الابيوردي ، وعلي بن محمد الصوفي، وأبو القاسم النيسابوري يُعرف بالكوفني ، معجم البلدان: ٤ / ٤٩.

١٧- الديوان:٢/ ١١٠

١٨- قراءة نقدية في نجديات الابيوردي:عبداللطيف محمد / ٣٩

*- المقربة: الخيل التي تقرّب إلى البيوت لنفاستها ، لسان العرب مادة قرب ٥ / ٣٥٦٧ .

١٩- الديوان:٢/ ١١،١٢

٢٠- معجم الادباء:٥/ ٢٣٦٠

٢١- الديوان:١/ ٣٤٦

٢٢- لسان العرب مادة زمن

٢٣- الزمن الوجودي: عبد الرحمن البدري،٥١،٥٣

٢٤- الزمن في الادب،ميرهوف،١٠

٢٥- الزمن عند الشعراء قبل الاسلام: عبد الاله الصائغ،٦٢

٢٦- التفسير النفسي في الادب،عز الدين اسماعيل / ٥٠

٢٧- مفهوم الزمن ودلالاته، عبد الصمد زايد،١٩

٢٨- الزمن في الادب:١٠،٧

٢٩-ينظر: الازمنة والامكنة، المرزوقي، ١٣٩

٣٠- اشكالية المكان في النص الادبي،ياسين نصير / ١٥٩

*-الوله : الحزن ، وقيل ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد ، لسان العرب مادة وله ٦ / ٤٩١٩ .

**- السلب : جمع سلوب وهي الناقة التي سلب ولدها ، أو ثياب سُود تلبسها النساء في المأتم ، لسان العرب مادة سلب ٣ / ٢٠٥١ .

***- رنق الماء: كدَّره ، لسان العرب مادة رنق ٣ / ١٧٤٤ .

٣١- الديوان٢/ ٣٢

٣٢- الحنين والغربة في شعر ابن الساعتي:حميدرضا،٤٨٨

٣٣- تجليات الزمن في عراقيات الابيوردي،علي محمود،٥٧

٣٤- العمدة: القيراوني، ٢/١٢٢،١٢١

٣٥- الديوان:١/ ٢٤٩/ ٢٤٨

٣٦- الديوان:١/ ٢٨٧

٣٧- الغربة في الشعر الجاهلي:عبد الرزاق الخشروم،٢٤١

٣٨- الديوان:٢/ ٢٢٦

٣٩- ينظر:الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي:علي جواد الطاهر،٦٥

٤٠- الديوان:٢/ ١٠١،١٠٢

٤١- ينظر: شعرالابيوردي دراسة اسلوبية:٨٦،٨٧

المصادر والمراجع:

١- الابيوردي حياته،دراسة في شعره القومي،نوري شاكر الالوسي، دار الحرية للطباعة،بغداد،١٩٨٠ (١

٢- إشكالية المكان في النص الادبي، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٨٦ ٣)

٣- الأزمنة والامكنة، المرزوقي (ط١، حيدر آباد الدكن ١٣٣٢هـ)، ١ / ١٣٩.ت.

٤- التفسير النفسي للأدب، عز الدين إسماعيل (ط٤، القاهرة ١٩٨٤).

٥- تجليات الزمن في عراقيات الابيوردي دراسة نصية، د. علي محمود الطوالبة - ود. نواف عبد الكريم غرايبة، جامعة البلقاء التطبيقية، الأردن، المجلد ٣، ع٧، جوبلية ٢٠١٨

٦- جدلية الحضور والغياب في شعر الابيوردي: د. فهد نعيمة البيضاني.

٧- الحنين والغربة في شعر ابن الساعاتي، حميد رضا، زهرة ابي، مجلة الكلية الإسلامية الجامعة - النجف الاشرف، العدد ٤١، مجلد ١، ١٩٦٧.

٨- ديوان الابيوردي (ت٥٠٧هـ)، تحقيق: د. عمر الأسعد، مؤسسة الرسالة ط (٢)، بيروت، ١٩٨٧م.

٩- الزمن الوجودي، عبد الرحمن بدوي (ط٢، بيروت ١٩٥٥(٩

١٠- الزمن عند شعراء قبل الاسلام، عبد الاله الصائغ،بغداد، ١٩٨٢

١١- الزمن في الادب، ميرهوف، ترجمة أسعد رزوق، القاهرة، ١٩٧٢.

١٢- شعر الابيوردي دراسة اسلوبية:اكرم علي عنبر،اطروحة دكتوراه،جامعة المستنصرية،كلية التربية،١٤٣٢/ ٢٠٠٦.

١٣- الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي اواسط القرن الخامس/ اواسط القرن السادس:علي جواد الطاهر،مطبعة المعارف،بغداد،١٩٥٨م.

١٤- عراقيات الابيوردي دراسة

تحليلية، عماد جغيم عويد العبودي، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة البصرة، ١٤٣١ه/ ٢٠١٠م.

١٥-العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده: ابن رشيق القيرواني (ت٤٦٣هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط(،)٤بيروت ـ لبنان، ١٩٧٢م

١٦-الغربة المكانية في الشعر العربي، عبده بدوي، عالم الفكر ـ المجلد ١٥، العدد الأول

١٧- لغربة في الشعر الجاهلي، عبد الرزاق خشروم، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٢.

١٨-الغربة والحنين في شعر الجواهري: محمد حسون نهادي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية / بغداد

١٩- الغربة والحنين في الشعر الاندلسي: فاطمة طحطح، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٣.

٢٠- قراءة نقدية في نجديات الابيوردي، عبد اللطيف محمد السيد الحديدي، وزارة المعارف، القاهرة، ط ١٩٩٧،١.

٢١- المعجم المفصل في الأدب، التونجي، ١٩٩١م،بيروت،دار الكتب العلمية،ط٢.

٢٢- المكان في شعر الشريف الرضي دراسة فنية، زينب عبد الكريم الخفاجي، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية التربية.

٢٣- مفهوم الزمن ودلالاته في الرواية العربية المعاصرة، عبد الصمد زايد، الدار العربية للكتاب، تونس ١٩٨٨.

٢٤- لسان العرب: ابن منظور (ت ٧١١هـ)، الدار المصرية للتأليف والكتاب، ط مصورة، مطبعة بولاق، بالقاهرة، ١٨٨٢.